التفاعل التجاري والثقافي بين السودانيين والمغاربة خلال القرن 10هـ/16م

الطالب الباحث: عميمور أيمن،

جامعة الجزائر (02) أبو القاسم سعد الله.

مقدمة:

يشمل السودان الغربي بمفهومه الواسع المنطقة المحصورة بين المحيط الأطلسي غربا والصحراء الكبرى شمالا وبحيرة التشاد شرقا، وخليج غانا جنوب خط عرض 10، شمال خط الاستواء، وصل إليه الإسلام في وقت مبكر، واشتهر بقيام عدد من الإمارات والممالك في العصرين: الوسيط والحديث على رأسها مملكة غانا ومملكة مالي و مملكة سنغاي، ومن المعروف أن العلاقات التي ربطت السودان الغربي بالشمال الإفريقي مند القديم إلى أن جاء الاستعمار الأوروبي إلى المنطقة، كان لها الفضل في حدوث تراكم وتفاعل حضاري بين الطرفين، وقد انتظمت وتوطدت تلك الصلات بين الجانبين عبر قنوات متعددة كالتجارة، لكن البعد الديني كان حاضرا بقوة في هذه العلاقات من خلال الأدوار المختلفة التي اضطلعت بها بعض المؤسسات الاجتماعية والجماعات الدينية كالزوايا والمساجد والكتاتيب، وكانت التجارة بمثابة المحرك والميكانيزم الحقيقي لتلك الروابط التي جمعت بين الطرفين وكانت الوجه الأكثر وضوحا من أوجه تلك العلاقات باعتبارها المنطلق الأول الذي نبعت منه وترتبت عنه الروابط الأخرى السياسية منها والاقتصادية والحضارية وحتى العقائدية.

بعد الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا تولى المغاربة تأمين أسواق السودان الكبرى وعملوا على تنظيم المواصلات مع هذه البلاد على أساس تجاري أولا ثم ما فتئ يتوطد عبر الفترات التاريخية اللاحقة حاملا معه مجموعة من التنظيمات الاجتماعية والدينية والحضرية، حيث كان للإسلام الفضل الأكبر في نقل اللغة

العربية ومختلف علوم الدين إلى أماكن كثيرة من السودان الغربي، ولم يكن لجهود الدعاة والوعاظ ولا لحلقات العلم في الجوامع من هدف سوى تعريف السودانيين بالآداب الإسلامية وقواعد الدين وتنظيم المجتمع على أسس جديدة، والقول بأن الفكرة الإسلامية التي تحالفت مع التجارة كانت العامل الأساسي في بناء الممالك السوداء، لا يعني بالضرورة قيام مجتمع يعتمد في تجانسه الفكري والحضاري على الثقافة العربية الإسلامية.

ولم تكن الصحراء الكبرى في يوم من الأيام تعيق التواصل بين بلدان المغرب الإسلامي وإفريقيا ما وراء الصحراء، فهي بذلك صلة وصل أكثر من كونها صلة فصل، فقد شق أديمها آباؤنا وأجدادنا بإمكانياتهم البسيطة وعلى رواحيلهم، في حركة دؤوبة شمال جنوب وجنوب شمال نتج عنها تأثير وتأثر وان كانت هاته العلاقات في الماضي تقوم على التجارة فقط، فقد أصبحت بالتدريج تشمل جميع جوانب الحياة، واتسمت بالثبات والتطور عبر الأجيال خاصة بعد انتشار الاسلام في افريقيا ما وراء الصحراء، لذلك حدث تلاحق بين الحضارتين العربية و الإفريقية في جميع الميادين في ظل الحضارة الإسلامية.

أولا: الحركة التجارية في السودان الغربي:

لقد اعتمدت كل الممالك التي حكمت السودان الغربي، على التجارة وما تجنيه من أرباح لدعم حكمها ولذلك اهتمت بتنظيمها وتخصيص مراكز لها، وكانت بلاد السودان الغربي الموضع الأمثل لهذه التجارة بين البلاد الواقعة جنوبها والبلاد الواقعة شمالها فيما وراء الصحراء، واعتبرت كذلك منطقة عبور للسلع بين المنطقتين التي لا غنى لإحداهما عن الأخرى فيما يخص عصبي هذه التجارة وهما الذهب والملح من جهة، والعبيد وريش النعام والعنبر وبعض التوابل، والثياب والأواني النحاسية والزجاجية والتمور من جهة أخرى، وهناك نوعين من التجارة، التجارة المحلية والتجارة البعيدة الأولى يقصد بها المعاملات التي تجري

داخل دائرة يبلغ نصف قطرها حوالي عشرة أميال من منطقة الإنتاج، وذلك هو المدى الذي كان يمكن تغطيته في يوم واحد سيرا على القدمين، أو على ظهر الحمار [1]، في أسواق محلية يوجد فيها بعض الدكاكين البسيطة كان يتبادل فيها السلع الرخيصة وتوضع في العراء، أما التجارة البعيدة كانت تتم في أسواق جهوية وأسواق كبرى، يأتيها التجار من كل مكان، وتوجد فيها بضائع أكثر كمية، ويتم فيها التبادل بين السلع المحلية والصادرة إليها، وتعقد فيها صفقات كبيرة[2].

1. الطرق التجارية:

لقد لعبت الطرق التجارية العابرة للصحراء، دورا هاما في العلاقات الاقتصادية بين الشمال والجنوب، وكذا التفاعل الحضاري بينهما، وقد عبرت القوافل الصحراء في وقت مبكر من العصر الإسلامي، وكانت تخرج من المنطقة الواقعة بين وادي درعة، وساحل المحيط الأطلسي [3]، وكانت تخترق الصحراء من كل جوانبها، ومن الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال، وهذه المسالك الصحراوية عديدة، غير أن المشهور منها في الفترة المراد دراستها هي:

- من سجلماسة، ينطلق الطريق إلى ولاته ومنها إلى تمبكتو، وجنى وجاو [4].

---

1 هوبكنز: **التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية**، تر أحمد فؤاد بلبع، تق محمد عبد الغني سعودي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1998، ص 104.

2 عبد القادر زبادية: **مملكة سنغاي في عهد الأسقيين**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د ت، ص ص195-196.

3 الدالي الهادي المبروك: **التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء**، الدار المصرية اللبنانية القاهرة، ط1، 1999، ص313.

4 عوض الله الأمين (ضمن كتاب أحمد إبراهيم دياب): **تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي وآثارها الحضارية حتى القرن السادس عشر**، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، معهد البحوث والدراسات الغربية، بغداد، 1984، ص73.

– من تلمسان ونواحيها، تأتي وتجتمع في غرداية، ومنه تنطلق القوافل إلى توات، ومن توات إلى تمبكتو مرورا بأرض الطوارق، وتستمر في سيرها الطويل قرابة شهر ونصف [1].

– من تكرت وورقلة، ينطلق طريق آخر إلى جاو مباشرة، وهذا المسلك يتصل شمالا ببضائع الموانئ الجزائرية الهامة في الشمال، مثل جزائر بني مزغنة، وبجاية وسكيكدة وغيرها [2].

– من واحة الجرير في جنوب تونس، تتجه إلى ورقلة، ومنها إلى سوف أو غدامس.

– من طرابلس الغرب على الساحل الليبي، إلى غدامس، ويمر فرع منه بفزان، وينتهي ببورنو وجاو.

– من مصر إلى واحة سيوة، وبزويلة وتادمكة، وينتهي إلى جاو وتمبكتو [3].

وكانت هاته القوافل التي تبذأ رحلاتها في فصل الشتاء، تتعرض إلى العديد من المشاكل والصعوبات كهجمات اللصوص، وقطاع الطرق من البدو الرحل، والطوارق الملثمين، ودفع الضرائب [4]، وكانت ندرة الماء من أخطر

---

1 عبد الحميد جنيدي، **مدينة تنبكت ودورها الحضاري خلال القرن 10ه/16م**، مذكرة ماجستير، إشراف خالد صابر الشريف، قسم التاريخ، كلية العلوم إنسانية، جامعة الجزائر،2008، 2009، 59.

2 عبد القادر زبادية: **الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1989، ص 29.

3 زبادية، مملكة سنغاي، ص 214.

4 يحي بوعزيز: **تاريخ افريقية الغربية الإسلامية**، دار البصائر، الجزائر، ط خ، 2009، جزءان، ص 45.

المشاكل، التي تتحكم في مدى استمرارية القافلة ونجاحها وكما ذكر الوزان، أن الماء في صحراء صنهاجة لا يوجد إلا على مسافة سفر ستة أيام أو سبعة [1].

2. المراكز التجارية على جانبي الصحراء:

أ- المراكز الواقعة في الشمال:

سجلماسة: يصفها الحميري بأنها، من أعظم مدن المغرب الأقصى، بينها وبين غانة في الصحراء مسيرة شهرين، وبينهم وبين سجلماسة مسيرة خمس أيام، وهي قليلة الماء، يسكنها قوم من مسوفة[2]، وقال عنها ابن حوقل بأنها مركز تجاري هام، يتوافد إليه التجار، وبها أرباح متوافرة[3] ووصفها كذلك ابن بطوطة وابن خلدون وغيرهم من الرحالة المسلمين، والبكري الذي قال بأنها مدينة سهلية بها أراضي خصبة وبساتين كثيرة ومركز تجاري هام لعب دورا كبيرا في العلاقات التجارية في الصحراء[4]، وموقعها الممتاز هو الذي جعلها تتحمل الحركة التجارية، وتوفير متطلبات القوافل، وجعلتها هاته الامتيازات أم البلدان المجاورة لحدود السودان الغربي، فكانت القوافل تنقل البضائع المغربية إلى السودان، وتأتي

---

1 الحسين عماري: **العلاقات التجارية بين المغرب والسودان الغربي في بداية العصر الحديث من خلال كتاب وصف إفريقيا** مقال بمجلة الكان التاريخية، دورية إليكترونية، ع 09، 2010، ص 35.

2 محمد بن عبد المنعم الحميري: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تح إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط1 1975، ص 305.

3 ابن حوقل أبو القاسم النصيبي: **صورة الأرض**، منشورات دار الحياة، بيروت، لبنان، 1996، ص99.

4 البكري أبو عبد الله بن عبد العزيز ابن عبيد: **المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة دت، ص 148.

ببضائعهم بما فيها الذهب والتوابل وغيرها، فكانوا حلقة وصل بين هذه المناطق، وازداد ثراء تجارهم بسبب تجارتهم مع السودان الغربي[1].

تغازة: تقع تغازه في جنوب المغرب الأقصى، بقرب البحر المحيط [2]، والطريق الرئيسي للقوافل بين المغرب وتمبكتو، وأغلب سكانها من مسوفة، وتعتبر المصدر الرئيسي للملح، وكانت مركزا تجاريا لأهم معدن في السودان الغربي، حيث قال الحسن الوزان: "...فكان مأهولا فيه عدد من مناجم الملح تشبه مقالع الرخام، يستخرج الملح من حفر، تحيط بها أكواخ عديدة، يسكنها المستخدمون لاستخراج هذا الملح وليسوا من سكان البلدة..."[3].

ويقول ابن بطوطة، أن تجار السودان كانوا يصلون إليها ليحملوا منها الملح، كما كان التجار المغاربة يأخذون الملح إلى السودان، وكانت الرحلة مكلفة ومتعبة [4].

تكدا: تقع تكدا إلى الجنوب الغربي، من مدينة تمبكتو، بحوالي أربعمائة وخمسين كيلومترا، وقد

ازدادت أهميتها بعد اكتشاف النحاس بها، حيث تحولت قوافل التجارة إليها [5]، وأول من ذكرها العمري (ت:749ه/1348م) ونقل عنه القلقشندي في ق: 9ه/15م، وذكر أن بها مناجم كثيرة تنتج النحاس وكذلك ذكر وجود الملح أيضا، وأورد إن بطوطة الذي ذخلها سنة 754ه/ 1253م أن هذا المعدن يستخرج من

1 الدالي، المرجع السابق، ص ص302-303.

2 القزويني زكرياء بن محمد: **آثار البلاد وأخبار العباد،** دار صادر، بيروت، دت، ص 25.

3 الوزان: **وصف إفريقيا،** تعريب محمد حجي ومحمد الأخضر، ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، د ت ج2، ص ص108-109.

4 الأمين عوض الله، المقال السابق، ص79.

5 الدالي، المرجع السابق، ص 310.

الأرض، ويأتون به إلى البلد، ثم يوزع في بلاد السودان [1]، ومن تكدا تسير القوافل إلى بورنو حيث تجلب الجواري والعبيد، وتصدر منها السلع إلى المغرب الأقصى [2].

توات: تعتبر توات مركزا من المراكز التجارية الهامة، فهي واحة في وسط الصحراء، وتعتبر همزة وصل بين الشمال الإفريقي وبين السودان الغربي[3]، ويقع إقليم توات في جنوب غرب الصحراء الجزائرية التي هي جزء من الصحراء الكبرى الإفريقية، وتبعد عن العاصمة الجزائرية بحوالي 1500كلم[4]، وكانت تتميز بتنوع الإنتاج الزراعي والحيواني والصناعي، وكانت مرتبطة بإقليم الأزواد، وشكلوا شبكة منظمة من المواصلات، ذهابا وإيابا، مع ضمان استمرارية التجارة، وتزويد التجار ما يلزمهم من غداء وماء، بخلق مناطق للاستراحة يوجد فيها الآبار[5].

وقد كان اليهود المحرك الأساسي للتجارة في توات، حيث كانت جاليتهم في المنطقة كبيرة وتتميز بالغنى، الشيء الذي در على توات أموالا وفيرة في تجارتها مع السودان الغربي، وكذلك في الوساطة التجارية، حيث كانوا على اتصال بأرباب

1 القلقشندي: **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1983، ج5 ص291. أنظر أيضا: الدالي، المرجع السابق، ص 310.

2 الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص79.

3 جميلة إمحمد التكيتك: **مملكة صنغاي الإسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير**، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ليبيا،1998، ص 128.

4 عبد الله كروم: **الرحلات بإقليم توات**، دار النشر دحلب، الجزائر،2007، ص 23.

5 محمد الصالح حوتيه: **توات والأزواد**، دار الكتاب العربي، الجزائر،2007، ج1، ص133.

التجارة، والشركات الأوروبية، التي كانت تتعامل مع المغرب آنذاك، وامتهنوا إلى جانب التجارة، صياغة الحلي وسك النقود [1].

غدامس: تقع مدينة غدامس إلى الجنوب الغربي من مدينة طرابلس، وتبعد عنها بحوالي 300كلم، لها تاريخ قديم حيث كانت حصنا تجاريا في عهد الفينيقيين والرومان [2]، وقال عنها الوزان إنها منطقة كبيرة مسكونة، بها قصور وقرى مأهولة بالسكان، أهلها أغنياء، لهم بساتين نخل وأموال لأنهم يتاجرون مع بلاد السودان [3].

وتصل إليها القوافل القادمة من طرابلس وجنوب تونس وشرق الجزائر، وتتجمع فيها، لتتجه بعض منها إلى توات فتمبكو، والبعض يتجه مباشرة نحو غات وكانو، والفرع الأخير يتجه إلى مرزق ثم إلى بورنو [4]، فصارت محطة مهمة في بداية الطريق، عبر المنطقة الوسطى من الصحراء الكبرى إلى السودان وكان حي الغدامسية في تمبكتو من أرقى الأحياء، واشتهرت بصناعة الجلود [5].

مرزوق: اشتهرت كمركز تجاري لبلاد البورنو، غير أن هنري بارت ذكر بأن لها صلة ببلاد توات وغدامس، وأن صلتها مع السودان.غ.، أكثر من صلتها بإقليم بورنو، وظلت كما كانت مند القدم وحتى ق:13هـ/18م المركز الرئيسي لإنعاش

1 عبد القادر زبادية: **محمد بن عبد الكريم المغيلي**، مقال في مجلة الأصالة، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية الجزائر، ع 26، 1975، ص268.
2 الدالي، المرجع السابق، ص296.
3 الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 146.
4 جميلة إمحمد التكيتك، المرجع السابق، ص 130.
5 الدالي، المرجع السابق، ص297.

قوافل التجارة القادمة من غدامس، وطرابلس إلى بلاد الهوسا وبورنو، والمركز الرئيسي لتجارة الرقيق في الصحراء [1].

ب- المراكز الواقعة في الجنوب:

يني أو نياني: كانت عاصمة لمملكة مالي، تستمد أهميتها من موقعها بالقرب من مناجم الذهب وبزوال مملكة مالي، انتهت أهميتها، ووصفها الوزان بأنها كانت قرية كبيرة، تحتوي على6 آلاف عائلة وتسمى مالي، تنتج الكثير من القمح واللحم والقطن، ويكثر فيها الصناع والتجار [2].

تنبكت(تمبكتو): تقع في شمال مالي، على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى، وحدد الوزان موقعها بقوله:"...على بعد نحو اثني عشر ميلا من أحد فروع النيجر..."[3]، بما يعرف منحنى نهر النيجر[4]، ومكنها موقعها المتميز من أن تلعب دورا مهما في اقتصاد شمال وجنوب الصحراء[5] وأضحت القوافل التجارية تأتي إليها مباشرة، وأصبحت سوقا للتجار وذوي الأموال[6]، وتوافد إليها التجار من داخل السودان وخارجه، خاصة من الشمال الإفريقي، في مقدمتهم المغرب الأقصى وليبيا فكان تجار سجلماسة، وفاس والسوس وغدامس، وفزان

1 الأمين عوض الله، المقال السابق، ص81.

2 نفسه، ص 82.

3 الوزان، المصدر السابق، ص 165.

4 على باري محمد فاضل، كريدية إسماعيل إبراهيم: **المسلمون في غرب إفريقية تاريخ وحضارة**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2007، ص95.

5 الدالي، المرجع السابق، ص 307.

6 عبد الحميد جنيدي، المرجع السابق، ص 53.

وطرابلس، يعودون محملين بالذهب والرقيق، وناب الفيل وريش النعام وغيره[1].

وكانت الكتب والمخطوطات حسب الوزان، ترد إليها من المغرب.أ.، وتباع بأثمان عالية تفوق أثمان السلع الأخرى، بالإضافة إلى الأقمشة التي تجلب من أوروبا [2]، وأعجب بخيراتها وبكثرة الحوانيت التي تبيع المنتوجات القطنية والألبسة[3].

وقد بلغت تمبكتو ذروة الازدهار الاقتصادي في ق:10ه/16م الذي عرف بالعصر الذهبي لتلك المدينة، حيث بلغت القوافل القادمة إليها من الشمال الإفريقي اثنى عشر ألف جمل[4].

جاو: كانت جاو عاصمة مند أيام ديا (ضياء) وسني علي، واستمرت عاصمة للبلاد في

عهد الأسكيين بداية من عهد الأسكيا محمد الكبير، الذي بلغت فيه أقصى اتساعها وازدهارها [5] وتقع المدينة اليوم في الشمال الشرقي من العاصمة باماكو، بجمهورية مالي، وكانت مركزا تجاريا هاما في السودان.غ. ونمت سريعا لوقوعها على نهاية الطريق الصحراوي، عبر المنطقة الشرقية والوسطى من الصحراء الكبرى المتجه نحو حوض النيل وأشرفت على حركة الملاحة والتجارة، على

1 الدالي، المرجع السابق، ص ص307,304.
2 الأمين عوض الله، المقال السابق، ص ص82-83.
3 نفسه، ص 83.
4 الدالي، المرجع السابق، ص 304.
5 جميلة إمحمد التكيتك، المرجع السابق، ص 122.

امتداد نهر النيجر وارتادتها القوافل التجارية، وأصبحت المدينة التجارية الأولى في وسط نهر النيجر [1].

وأهم السلع التجارية التي كانت تأتيها فهي الملح من تغازه، والودع الذي يجلب من الهند بواسطة التجار المغاربة، والنحاس المسبوك من تكدا، وكانت القوافل تصل إلى تمبكتو، ومنها تتجه إلى جاو وذلك في عصر ازدهار الطرق الصحراوية بين المغرب الأقصى والسودان الغربي، في بداية ق: 10ه/ 16م [2].

جنى: لها عدة تسميات، فقد سماها التجار المغاربة "جنى" و "جان"، أما الأوروبيون فسموها "غينيا" لأن ليون الإفريقي وضعها ضمن مملكة غانا[3]، وهي تقع في الجنوب الغربي، من مدينة تمبكتو على مسيرة مائتي ميل (ستمائة كيلومتر تقريبا)، وهي على خط عرض 36-31 شمالا وخط طول 9 شرقي خط غرينيتش[4]، وورد اختلاف في تاريخ تأسيسها إلا أن السعدي يورد أنها تأسست في ق:2ه/ 623م [5]، وقال عنها أيضا"...وهي سوق عظيم من أسواق المسلمين وفيها يلتقي أرباب الملح من معدن تغازة وأرباب الذهب من أرباب بيط[...]ووجد الناس بركتها في التجارة..."[6]، وقد حظيت بأهمية اقتصادية كبيرة، نظرا لموقعها المتميز، بعد أن ذخلها سني علي عمل على تطويرها وازدادت

1 الدالي، المرجع السابق، ص ص309-310.

2 الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص 83.

3 Delafosse, (m), haute **Sénégal Niger,** libraire-éditeur Emile larouse, Paris tome 2,1912. T2, p181.

4 توماس أرنولد: **موجز دائرة المعارف الإسلامية**، تح، إبراهيم زكي خوشيد وآخرون، مركز الشارقة للإبداع والفكر، ط1، 1992 ج11، ص 145.

5 عبد الرحمن السعدي: **تاريخ السودان**، تح هوداس، المطبعة الأمريكية الشرقية باريس، 1981، ص 12.

6 نفسه، ص ص11-12.

ازدهارا في عهد الأسكيا محمد الكبير وأصبحت ملتقى للتجار داخل السودان وخارجه واستفادت من النقل النهري في نقل الملح والذهب[1]، واستطاع سكانها أن يبلغوا بتجارتهم حتى تمبكتو وجاو، وإلى البلاد التي تقع عند منعطف النيجر، حتى غدت ثالث مدينة من حيث الأهمية التجارية في السودان الغربي بعد تمبكتو و جاو[2].

3. السلع الواردة إلى السودان الغربي ونظم التعامل:

لقد كانت أغلب البضائع التي ترد على أسواق إفريقيا الغربية على أيام الأسكيين تأتي من بلدان المغرب العربي وهناك قسم يرد عن طريق مصر وأتى جزء آخر من داخل الصحراء.

أ- السلع الواردة:

الملح: الذي كان يمثل سلعة مهمة في تجارة الصحراء، مند القدم، أي قبل الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا، وذلك لعدم توفره بكميات كبيرة تكفي لسد متطلبات السكان داخل أرض السودان وكانت مدينة جاو أهم المراكز للإتجار بالملح [3]، ولا تقل أهميته عن الذهب بالنسبة للمغاربة، لذلك لم يبالوا بمبادلته بالذهب وزنا بوزن، واستعمل كعملة للمختلف المبادلات التجارية [4].

1 الدالي، المرجع السابق، ص 307.
2 جميلة إمحمد التكيتك، المرجع السابق، ص125.
3 الدالي، المرجع السابق، ص ص328,324.
4 الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص84.

النحاس: كان يستعمل كعملة، وكأداة للزينة، كالأساور والأقراط، وجزء منه يستعمل كأوان منزلية والجزء الآخر كان في شكل لواجم للخيل، وقسم منه كان في شكل أقفال وحلق للأبواب [1].

الودع: وهو نوع من الصدف، كان يجلب إلى صنغاي من قبل التجار المغاربة وجلبه الأوروبيون من الهند [2]، وقد استخدم في الأسواق كعملة بيع وشراء [3]، كما أنها تتخذ كحلي شائعة الاستعمال بين جميع طبقات المجتمع [4].

المصنوعات الجلدية والحديدية:

كانت القوافل التجارية تنقل بعض الأدوات الحديدية وأغلبها يستعمل لتجهيز الخيل، كالأزمة والحدب، وقسم منها كان يستعمل للحصاد والحرث، كالمناجل والسكك وقسم آخر منها يستعمل كحلق الأبواب، والسيوف، وقليلا ما كانت تستعمل منها أدوات للزينة [5]، أما الجلدية منها، فتتمثل في الدروق التي تنسب إلى لمطة، وكانت ذوا جودة عالية، تصنع من جلد حيوان اللمط [6]، وكانوا يستبدلون بالذهب السيوف والبضائع الأخرى ومنها المصنوعات الحديدية والجلدية [7].

المصنوعات الزجاجية:

1 زبادية، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص219.
2 الدالي، المرجع السابق، ص332.
3 محمود كعت التمبكتي: **تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس**، تح وتر، هوداس ودولافوس، مطبعة هوداس، باريس، 1964، ص 122.أنظر أيضا: السعدي، المصدر السابق، ص 312.
4 زبادية، المرجع السابق، ص 220.
5 نفسه، ص 219.
6 الدالي، المرجع السابق، ص ص331-332.
7 جميلة إمحمد التكيتك، المرجع السابق، ص 143.

بعضها كان في شكل طنافيس وكؤوس، والبعض الآخر في شكل حبات للأسباح، أو كرات صغيرة تدرج عقود للأعناق أو الأيدي للزينة [1]، ويقوم التجار بشراء المواد الغذائية من نساء القرى مقابل هاته الأشياء [2]، كذلك المرايا والأمشاط، ومعظمها بضائع مدن البندقية وميلان وبرشلونة [3]، بالإضافة إلى الأحجار الكريمة، التي كان مصدرها في الصحراء الفاصلة بين غدامس وتادمكة، بمختلف الأحجام والألوان، وكانت غالية الأثمان موجها لطبقة الأثرياء [4].

العطور: كانت بعض موادها الأولية مثل المسك والعنبر، تجلب من السودان، أما بقية النباتات التي تصنع منها مثل الخزامى، تجلب من المغرب الأقصى، وهي في مجملها تأتي إلى السودان من إيطاليا ويجني التجار من ورائها، أرباحا طائلة، لأنها كانت شائعة في المنطقة، خاصة في مملكة سنغاي. بين الملوك والرؤساء والقضاة والوجهاء [5].

التمر: من السلع التي كانت ترد على السودان الغربي، -وخاصة إلى مدينة جنى-من الشمال الإفريقي، فقد كانت تصدر من ورجلان وسجلماسة وغدامس وأيولاتن [6].

1 زبادية، المرجع السابق، ص 219.

2 الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص87.

3 يحي بوعزيز (ضمن كتاب أحمد إبراهيم دياب): **طرق القوافل والأسواق التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الأوروبيون خلال القرن التاسع عشر**، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، معهد البحوث والدراسات الغربية، بغداد 1984 ص134.

4 الدالي، المرجع السابق، ص331.

5 زبادية، المرجع السابق، 220.

6 الدالي، المرجع السابق، ص 331.

المنسوجات:

كان معظم لباس سكان السودان الغربي، من الصوف والقطن والحرير، خاصة ما يعرف "بالسوسية"، نسبة إلى سوس بجنوب المغرب الأقصى، وهي من الحرير الطبيعي، وسداها من القطن [1]، وكان ملوك سنغاي يفضلونه عن غيره من الأقمشة، حيث كان لباس الأسكيا داود، وهو أخضر اللون ويسمونه أيضا "بيضات" [2]، كذلك الأوروبية الصنع، وهي متقنة وخيطها من واردات الشام إلى إيطاليا وكانت أغلى أصناف المنسوجات الحريرية في الأسواق السودانية، أما القطنية فتأتي في الأغلب من مصر والمغرب، بالإضافة إلى الصناعة المحلية [3].

الكتب:

كانت تمثل نوعا من أنواع التجارة، ومنها المخطوطة والمنسوخة من الورق، وذلك بسبب ازدهار الثقافة العربية، وانتشارها بشكل واسع، واهتمام العلماء بالتدريس[4]، وكانت أثمانها مرتفعة خاصة في عهد مملكة صنغاي، وكانت مدينة تمبكتو سوقا رائجة لها، فقد طلب كعت من السلطان أسكيا داوود، أن يشتري له نسخة القاموس بثمانين مثقال، الشيء الذي يذل على قيمة الكتب والرفعة العلمية التي كان عليها ملوك السودان الغربي[5]، ومناطق استردادها هي المغرب الاقصى ومصر والحجاز، وقد نشأة في السودان الغربي حرفة الوراقين كتقليد لما كان في المغرب ومصر، وألفوا عدة مؤلفات، لكن الاستيراد ظل موجود[6].

---

1 زبادية، المرجع السابق، ص221.
2 الدالي، المرجع السابق، ص 334.
3 زبادية، المرجع السابق، ص 223.
4 يحي بوعزيز، تاريخ إفريقية الغربية، المرجع السابق، ج1، ص 47.
5 الدالي، المرجع السابق، ص 330.
6 زبادية، المرجع السابق، ص 222.

الخيـول والبغـال:

كانت من بين السلع التي وصلت إلى السودان من بلاد المغرب الإسلامي خاصة الأصيلة منها، إذ كان يوجد في بلاد السودان خيول صغيرة وقصيرة، يستخدمها أفراد حاشية الملك في تجوالهم بالمدينة [1]، وكان إقتناء الخيول من جهة لدعم القوة العسكرية، فقد كانت قوة الفرسان، أهم فرق الجيش خاصة في عهد الأسكيا محمد الكبير، الذي كان يطلب أحسن أنواع الجياد ويدفع مقابلها أثمانا كبيرة وسبب غلائها أن معظمها يموت مع الطري، نتيجة الحر والعطش [2].

ومن جهة أخرى فإن امتلاك الخيل ينم عن مظهر من مظاهر الثراء، ويقول إن بطوطة أنه لم يستطع شراء حصان لترحاله من مالي، حيث كان ثمنه مائة مثقال من الذهب، بينما اشترى جملين بثلاثين مثقال من تكدا [3]، وكانت جاو سوقا رائجة لتجارة الخيول الأصيلة وسروجها [4]، وثمنها من أربعين إلى خمسين مثقالا [5].

أما بغال المغرب العربي، فهي مرغوبة في الصحراء، وذلك لضخامتها وقوتها، وقدرتها على الكر والفر في الحروب، وكان البغل الواحد منها يقايض بـ 15 إلى 20 عبدا في بورنو [6].

---

1 الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 166.أنظر أيضا: السعدي، المصدر السابق، ص 197.

2 جميلة إمحمد التكيتك، المرجع السابق، ص 140.

3 إن بطوطة محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي: **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، المكتبة التجارية مصر،1958، ج2، ص ص199,191.

4 مارمول كربخال: **إفريقيا**، تر محمد حجي وآخرون، دار المعارف الجديدة، الرباط 1989، ج3 ص ص204 -205.

5 الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 170.

6 يحي بوعزيز، طرق القوافل، المقال السابق، ص 135.

ريش النعام، والأدوية العشبية، والبهارات ومواد الصباغة، والشاي، والسكر، وصمغ الصنوبر والخضر الجافة، والزيوت، والشحوم، والأغنام، بالإضافة إلى الكبريت، وكحول النساء التي تأتي من البندقية الإيطالية عن طريق التجار المغاربة [1].

ومنه فهذه هي أهم السلع والبضائع، التي حملها التجار إلى مختلف أسواق السودان الغربي، وهي تمثل سلع مغربية، وأوروبية، وآسيوية، تفاوتت في الأسعار من منطقة لأخرى ومن سوق لآخر، أما السلع التي تصدرها مدن السودان الغربي، فهي تضم مختلف المنتوجات والمصنوعات التي تطرقنا إليها في العناصر السابقة التي يكون فيها اكتفاء، وتستعمل للمبادلة مع السلع الواردة، وعلى رأسها الذهب والعاج والرقيق والقطن والفول السوداني.

ب- أساليب التعامل:

المقايضة: أو كما سماها "هيرودوت"، والكثير من والجغرافيون والمؤرخون العرب من بعده بـ: "التجارة الصامتة"[2]، وهي إحدى وسائل التعامل بين التجار، وهي معروفة منذ أقدم العصور، اشتهر بها الفينيقيين، وقد اعتمدت في تجارة الصحراء، وهي تعتمد على الاتفاق بين الطرفين، فيما يعرضونه من سلع وبعد العرض يختفي عنها إلى أن يتفقوا [3]، وهاته الطريقة كانت شائعة في السودان الغربي، ولكنها لم تكن الوسيلة الغالبة لممارسة التبادل لكنها كانت المرحلة الأولى في نشوء اقتصاد سوقي[4]، فكمية من الملح مثلا يتم تبادلها بعشرين وزنه من

1 يحي بوعزيز، تاريخ إفريقيا الغربية، المرجع السابق، ج1، ص47.

2 الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص90.

3 الدالي، المرجع السابق، ص 339.

4 هوبكنز، المرجع السابق، ص 133.

البشنة، أو اللوبية الأهلية، وحمار واحد يباع بألفي وزنه من البشنة وهو ما يعادل عشرة حمولات بعير، أو قطعتين من القماش الأسود المخيط[1].

العملة: إلى جانب التبادل العيني للسلع، كانت هناك عدة عملات في بلاد السودان الغربي حيث يذكر الوزان أن في مملكة سنغاي كانوا يتعاملون بالنقود والسبائك الذهبية [2].

كما ذكر البكري أنه في أسواق تادمكة يتعامل الناس بالدراهم الصلع، أي غير المكتوبة [3]، غير أن الحفريات في جاو وجدت الكثير من الدراهم والدنانير الفاطمية، والمغربية والملوكية [4]، أما في فترة سنغاي فكانت عبارة عن دنانير من الذهب الخالص والمطبوع، كما كان النحاس من بين العملات المتعامل بها فقد كان يصنع على هيئة قضبان، 400 منها يساوي مثقال من الذهب وكان استعمالها قليل [5].

كذلك عملة حديدية، منتشرة في مناطق غينيا، وعملة الملح المعدني الذي يقطع إلى قطع صغيرة مختلفة الأحجام، تستعمل للبيع والشراء، ففي ولاته هناك قطع تساوي 20 دوخة، أو 160فرنك كذلك عملة ذهبية على شكل قطع، والمثقال الذهبي الذي يساوي 19 فرنكا في تمبكتو، والدوخة الذهبية والفضية والدراخمة، والمجدي، والمحبوب الذهبي، والموزة الفضية، كذلك الدورو الفضي وهي في مجملها شائعة في بلدان المغرب العربي، بالإضافة لعملة الكوري

1 يحي بوعزيز، المرجع السابق، ج1، ص48.
2 الوزان، المرجع السابق، ج2، ص 165.
3 البكري، المصدر السابق، ص 181.
4 زبادية، المرجع السابق، ص 208.
5 الدالي، المرجع السابق، ص ص342-343.

(couris)، وهي عملة فارسية وهندية مستوردة، قيمتها منخفضة جدا، كذلك عملة البينتو(Pinto)، المستوردة من إيطاليا [1].

الودع: استخدم كوسيلة شرائية معترف بها، استمرت حتى ق:13ه/19م، وكان يجلب من المحيط الهندي، عن طريق التجار المغاربة والمصريين، وحسب الوزان فإن أربعمائة ودعة تعادل أوقية من الذهب [2]، وقد أكد كعت تعامل أهل صنغاي به، حيث أن المثقال من الذهب في تمبكتو، كان يصرف بثلاثة آلاف ودعة [3]، كذلك السعدي أكد التعامل بالودع، فقال أخد القائد مامي من أهل الزغرانيين من مائتين إلى أربعمائة ودعة [4].

المنسوجات القطنية: من السلع التي أصبحت لها قوة النقد، ويطلق عليها أهل التكرور الشيكات

وكانت تدخل في معاملات عديدة، بالإضافة إلى نسيج دندي، الذي يتعامل به في الكانم، ينسج محليا وطول كل ثوب عشر أدرع، يشترون الربع منه لأنه غالي الثمن [5].

ومنه فإن تجارة القوافل الصحراوية كانت مربحة، إلى حد بعيد رغم الأتعاب والمشاق التي يتكبدها التجار وذلك من ضمن الحوافز التي دفعت بالأوروبيين إلى السعي للسيطرة عليها واستعمارها في القرنين 12-13ه/18-19م، وقد كان للبلاد مقاييس ومكاييل وموازين ثابتة ومتعارف عليها، بالإضافة إلى توفر وسائل النقل المختلفة، وهذا ما يفسر وصول البضائع لمختلف جهات السودان الغربي.

1 يحي بوعزيز، المرجع السابق، ج1، ص 49.
2 الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص90.
3 كعت، المصدر السابق، 180,100
4 السعدي، المصدر السابق، ص ص157-158.
5 الدالي، المرجع السابق، ص340.

ثانيا: الواقع الثقافي لبلاد السودان الغربي:

يعد دخول الدين الإسلامي إلى إفريقيا من الأحداث المهمة في تاريخها، وما ميز المسلمين عن غيرهم من الوافدين في نظر الأفارقة، كون المسلمين كأصحاب رسالة يحترمون جميع الأجناس [1] فكان خلو الإسلام من أي نزعة عنصرية أو تميز طبقي كان سببا في تغلغله في غرب إفريقيا [2]، فأقبل الأفارقة على الثقافة الإسلامية لما وجدوا فيها من ملائمة لحياتهم ولحاجاتهم، ولما فيها من حماس متزايد للعلم والثقافة [3].

فازدهرت بذلك الحياة الثقافية في السودان الغربي، ويمكننا أن نلخص الواقع الثقافي للمنطقة في:

1. التعليم:

قام سلاطين سنغاي(الأساكي)، بدور بارز في تشجيع العلماء، وبتأسيس المساجد والمدارس ومساكن الطلاب، والنهوض بأعبائها ماديا ومعنويا، حيث أغدقوا على العلماء وطلبة العلم وأنفقوا عليهم بسخاء وأعفوهم من كل وظائف السلطنة، فنصبوا أنفسهم لنشر العلم في المساجد والمدارس وفي بيوتهم، وتفرغوا لتدريس العلوم بشتى فنونها، وخاصة الدينية منها واللغوية، حيث ظلت العلوم الشرعية واللغوية تحتل مركز الصدارة في السودان الغربي، فظهرت مؤلفات

---

1 الهادي المبروك الدالي: **التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر**، دار الكتب الوطنية، بنغازي ليبيا، 2008، ص67.

2 صباح السيخلي: **ملاحظات حول انتشار الثقافة العربية الإسلامية في إفريقية جنوب الصحراء**، مقال بمجلة آفاق الثقافة والتراث، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، الإمارات العربية المتحدة، ع 38، 2002، ص20.

3 نعيم قداح: **حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقيا الغربية**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر د ت، ص 155.

وحواش وشروح في مختلف المجالات وخاصة في الجانب الفقهي فقد اعتنوا اعتناءً كبيرا بأمهات كتب المذهب المالكي فأجادوا وأفادوا، وقد استطاع العلماء في عهد صنغاي أن يضعوا للحكام قواعد يسيّرون على وفقها شؤون البلاد[1]، وبفضل صبر العلماء ومثابرتهم على التدريس ليل نهار؛ استطاعوا أن ينهضوا بمستوى الوعي الديني في أوساط شعب سنغاي إلى أعلى مستواه، مما جعلهم يحظون – وبخاصة علماء الشريعة– باحترام منقطع النظير[2].

وقد أكد ذلك قول حسن الوزان:"...ولهم مساجد كثيرة وأئمة، وأساتذة يدرسون في المساجد لعدم وجود المدارس، وهم أكثر تحضرا وذكاء واعتبارا من بين جميع السود، لأنهم كانوا من السابقين إلى اعتناق الإسلام..."[3]، كذلك قوله: "...وفي تمبكتو عدد كثير من القضاة والفقهاء والأئمة، يدفع الملك إليهم جميعا مرتبا حسنا، ويعظم الأدباء كثيرا..."[4].

وكان المعلمون في جميع جهات السودان الغربي يتفرعون إلى قسمين: طائفة المعلمين، وطائفة المؤدبين (الأساتذة)، هاته الأخيرة تتقاضى الأجور من سلاطين الأسكيين، وغالبا ما تصلهم الأجور من طرف القضاة الذين يتولون الإشراف على الحركة التعليمية في المنطقة، وبالتالي توكل إليهم مسألة العناية بإيواء الطلاب وتوزيع الهدايا عليهم وعلى معلميهم، وكانت مراحل التعليم تقسم إلى مرحلتين أساسيتين: مرحلة التعليم الابتدائي ومرحلة التعليم الثانوي والعالي [5].

---

1 محمد ألفا جالو: **الحياة العلميّة في دولة سنغاي خلال الفترة 842 – 1000 هـ** ، مذكرة ماجستير ،جامعة أم القرى 1993، ص49.

2 نفسه، ص50.

3 الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 164.

4 نفسه، ص 167.

5 زبادية المرجع السابق، ص 142.

ويتولى التدريس في المرحلة الإبتدائية معلمو الكتاتيب، حيث كانت المدارس في أول الأمر ملحقة بالمساجد، وهناك أمكنة أخرى لنوم الطلاب القادمين من بلاد بعيدة، أما القرى الصغيرة التي تخلو من المساجد، كان الأطفال يتلقون تعليمهم بواسطة أحد الدعاة في ساحة صغيرة في الحي، أو في أحد الحوانيت كما في غينيا والسنغال [1]، وكان دخول الأطفال للكتاب في سن الخامسة غالبا ويستلزم في المعلم أن يكون دو كفاءة لازمة لمهنته، كحفظ القرآن والإلمام بمبادئ اللغة، والفرائض وإتقان الخط ومن هنا كان عمل الكتاب هو تهيئة الطالب للدخول في المرحلة الثانية، وكان عدد الكتاتيب في سنغاي مرتفعا، تضم عدد كبير من التلاميذ [2]، وهذا ما يفسره قول كعت لما حظر مكتب المعلم علي في تمبكتو فوجد ألواح الصبية[3]، فعدد منها مائة وثلاثة وعشرون لوحا [4].

أما التعليم الثانوي والعالي، يأتي بعد التعليم الابتدائي، ولم يكن في هاتين المرحلتين السن معروف ولم تكن الفوارق بينهما واضحة، حيث تكمن في حجم المسجد، وفي المواد المدرسة فكانت المساجد الصغيرة تدرس المواد الأكثر وضوحا وبساطة، وكتب غير معقدة، وكان في تمبكتو التعليم العالي في جامع "الونكريين" أو "السنكري" [5]، حيث تدرس المواد في شكل اختصاص وتتناول بتفصيلات واسعة وتناقش المسائل فيها على مستوى أمهات المؤلفات الكبيرة

1 نعيم قداح، المرجع السابق، ص ص158-159.

2 زبادية، المرجع السابق، ص ص142-143.

3 هي ألواح خشبية كانت تستعمل قديما لكتابة القرآن وحفظه.

4 كعت، المصدر السابق، ص 181.

5 يقع مسجد سنكري في الشمال الشرقي لمدينة تمبكتو، بنته امرأة واحدة أغلالية ذات مال كثير في فعل البر، ولا يعرف تاريخ بنائه. أنظر: جاك وودس: **جذور الثورة الإفريقية**، تر وتح، أحمد فؤاد بلبع وآخرون، الهيئة المصرية العامة للتأليف للنشر، 1971، ص 563، ينظر أيضا: السعدي المصدر السابق، ص 62.

التي عرفها المسلمين حتى ذلك العهد وكان لا يجلس للتعليم من هذا النوع إلا أساتذة متضلعين قد أحاطوا بكل جزئيات المواضيع التي يدرسونها [1].

2. العلماء:

يعتبر العلماء المتضلعين في مختلف الفروع العلمية المعروفة حتى ذلك الحين كانوا كثيرين في مملكة الأساكي، ولهم نشاط كبير في التدريس، وإقبال على التأليف واقتناء الكتب بأثمان عالية حيث يجمعونها في مكتباتهم، التي كانت تشبه في ضخامتها حوانيت التجار الكبار[2]، ويمكننا أن نأخذ فكرة عن سعة إطلاع هؤلاء العلماء السودانيين في هاته الفترة، من كثرة الكتب التي كانوا يتداولونها في مختلف الفروع وفي هذا الصدد يحدثنا الناصري عن أبا العباس أحمد بابا فيما يخص عدد الكتب التي ضاعت منه حين نفي إلى مراكش، قال أحمد بابا: "أنا أقل عشيرتي كتبا وقد نهب لي ست عشر مائة مجلد" [3]، وهكذا كان تضلع علماء السودان، وهكذا كانت سعة اطلاعهم وكانوا يباشرون مهنة التعليم طول النهار، وسط عدد ضخم من طلاب العلم[4].

أ- مراتب العلماء:

لقد كان لعلماء السودان الغربي عدة مراتب منهم، الأشراف، الذين ينتسبون إلى أهل بيت النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهؤلاء أغلبهم، إن لم يكن كلهم، كانوا من الوافدين على البلاد وخاصة تمبكتو وأهل بيوت العلم من سكان البلاد، الذين ويأتون بعد الأشراف، وقد توارثوا العلم ومن هؤلاء أسرة "آقيت" فقد

1 زبادية، المرجع السابق، ص 144.
2 زبادية، المرجع السابق، ص 155.
3 أبو العباس أحمد بن خالد الناصري: **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تح، جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتب، الدار البيضاء، 1955، ج5، ص 130.
4 زبادية، المرجع السابق، ص 145.

تعدد فيهم العلماء والقضاة، وتوارثوا رئاسة العلماء مدة طويلة تقرب من مائتي سنة ومنهم كان الأساكي يختارون القضاة في تمبكتو وجنّي وجاو، كذلك أسرة أحمد بابا التمبكتي، وإلى جانب تلك الأسر، أسرة اندغ محمد، وهي أيضاً أسرة علم وصلاح، توارثوا مراكز مهمة في البلاد كالقضاء والإمامة والتدريس[1]، وسوف أقوم بتلخيص أهم علماء السودان الغربي سواء الوافدين أو المحليين، انطلاقا من أشهر المراكز الثقافية: تمبكتو، وجني، وجاو.

ب- **العلماء الوافدون:**

الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني: ينتسب إلى قبيلة مغيلة بنواحي تلمسان، ولا يعلم تاريخ ولادته، غير أن وفاته كانت سنة 909ه/1504م، وقد كان من المثقفين وأولي الفكر في عصره[2]، وأحد الأذكياء ممن له بسط الفهم والتقدم، متمكن المحبة في السنة وبعض أعداء الدين[3] حفظ القرآن الكريم ثم درس العلوم العربية الإسلامية، اشتغل بالتدريس في تلمسان، ثم هاجر إلى توات سنة883ه/1479م[4]، حيث قاتل فيها اليهود، وهدم كنائسهم، وقد روى أحمد بابا عنه أنه قال:"...من قتل يهوديا فله سبع مثاقيل..."، ثم هاجر إلى بلاد التكرور، والتقى بالسلطان الأسكيا محمد الكبير، الذي كتب له تأليفا أجابه فيه عن مسائل، توفي في توات خلف عدة تآليف منها "البدر المنير في علوم التفسير"

1 محمد ألفا، المرجع السابق، ص ص153,151.

2 محمد بن عبد الكريم المغيلي: **أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي**، تقد وتح، عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص8.

3 أحمد بابا التمبكتي: **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، تقد، عبد الحميد عبد الله الهرامة، كلية الدعوة الإسلامية طرابلس، ليبيا، ط1، 1989، ص576.

4 يحي بوعزيز، المرجع السابق، ج1، ص ص63-64.

و"مصباح الأرواح في أصول الفلاح"، كتاب عجيب في كراسين أرسله للسنوسي، وكتاب "الفتح المبين" وعدة قصائد كالميمية على وزن بردة[1].

صالح بن محمد أندى عمر المعروف بالشيخ العمري: كان من أهل العلم والفضل وكان كلامه مسموعا لدى السلاطين، له شرح على مختصر خليل [2].

أبو القاسم التواتي: وصل إلى تمبكتو مع جماعة من علماء وشرفاء تافيلالت، سكن بالقرب من المسجد الأعظم، وكان يستقبل الطلبة في داره، وكان أسكيا محمد يصلي وراءه ويطلب دعاءه، وحينما توفي في تمبكتو عام921ه/1516م، كان يوجد في تمبكتو خمسون عالماً من توات [3].

الإمام سيدي يحيى المغربي: إمام مسجد سيدي يحيى الذي كان في قلب مدينة تمبكتو، توفي هذا العالم سنة970ه/ 1563م [4].

ج- **العلماء المحليين:**

محمود بن عمر بن محمد آقيت: من مواليد تمبكتو868ه/1464م، عين قاضيا وهو ابن 35سنة وكان يدرس مدونة الإمام سحنون، ورسالة أبي زيد والفقيه ابن مالك، وهو أول من درس مختصر خليل وألف في ذلك كتابا من جزئين، وجادل علماء مصر مثل المقدسي والقلقشندي في رحلته للحج سنة 914ه/1509م، ومحود بن عمر كان أستاذا في ولاته وتمبكتو، متضلعا في العلوم الشرعية قوي الحافظة، وكان مهيب الجانب لورعه وزهده، وقوي الحافظة [5].

---

1 أحمد بابا التمبكتي، المصدر السابق، ص ص577-578.

2 محمد الغربي: **بداية الحكم المغربي في السودان الغربي**، إشراف نقولا زيادة، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر الكويت، د ت، ص 515.

3 نفسه، ص ص515-516.

4 ألفا، المرجع السابق، ص 154-153.

5 محمد الغربي، المرجع السابق، ص 516.

العاقب بن محمود بن عمر آقيت (قاضي تمبكتو): كان مسددا في أحكامه، صلبا في الحق ثبتا فيه، مقداما، جسورا على السلطان فمن دونه، أخد عن أبيه وعمه، ذهب للحج وقابل البكري [1].

محمد بن محمود بن أبي بكر الونكرمي التمبكتي: المعروف ببغيع، ولد سنة 930ه/1524م من عباد الله الصالحين، يحب عمل الخير وإصلاح ذات البين والنصح والإرشاد، كان محبوب لدى الجميع أخد العربية والفقه على يد أبيه الصالح محمود، وخاله الصالح، الذي ذهبا معه هو وأخيه الفقيه الصالح أحمد بعد عودتهما استقرا في تمبكتو، وأخد أيضا عن ابن السعيد الفقه والحديث، وقرأ عنه المدونة والموطأ وصار في آخر الحال شيخ وقته في الفنون، توفي سنة 1002ه/1594م، وله فتاوى كثيرة[2].

د- **نظام الإجازات (الشهادات):**

كان هذا النظام معروفا في السودان.غ. على عهد الأسكيين، إذ كان الأستاذ كلما أنس من أحد طلبته تمكننا كافيا، في مادة من المواد، التي يدرسها الطالب على يده، أعطاه إجازة بخط يده[3] حيث يذكر لنا السعدي في هذا الصدد، عن المواد التي درسها عن شيوخه والكيفية التي تعلم بها، والمدة التي استغرقها في الملازمة، ثم ينهي حديثه بقوله: "...إنه أجازني بخطه جميع ما يجوز له وعنه..."[4] وكانت تعطى الشهادة الدالة على نجاح الطالب الذي قام بإتمام المرحلة التعليمية[5] التي تؤهله ليصبح بعدها متمكنا في مادته وأسانيدها، وقد ناقشها معه معلمه أو

1 أحمد بابا التمبكتي، المصدر السابق، ص ص353-354.

2 نفسه، ص ص600-603.

3 زبادية، المرجع السابق، ص 147.

4 السعدي، المصدر السابق، ص 46.

5 عبد القادر زبادية: **ملامح الحركة التعليمية في تمبكتو خلال القرن السادس عشر**، مقال منشور بالمجلة التاريخية المغربية، مطبعة الاتحاد العام التونسي، تونس، عدد 7، 1977.ص 35.

أستاذه[1]، والشهادة تعطى مباشرة لصاحبها إلا في بعض الحالات الخاصة، يجوز إرسالها للطالب التابع له، كما حدث عندما أرسل الفقيه أحمد بابا إجازة علمية عامة للعالم المغربي "عبد الرحمن التنارتي"، الذي سبق وأن تعرف عليه بمدينة مراكش[2].

وكانت هناك شهادات خاصة تختص بحفظة القرآن الكريم والحديث، أي خاصة بالثقافة الإسلامية البحتة، لنشر كلمة الله تعالى، بالإضافة إلى شهادات عامة تشمل عدة مواد أو فنون، أو مهارات بجانب العلوم الدينية، وتعطى عادة في حفل كبير، وأحيانا يسلم لهم عمائم دليلا أنهم أصبحوا من العلماء وهاته الشهادة تؤهله لأن يعمل بإلقاء الخطب أو الإمامة، أو العمل كمساعد القاضي أو نائبا له أو في نسخ الكتب أو تعليم القراءة، أو تنتهي بالعمل بالقضاء وتولي مهامه[3].

3. الحركة الفكرية:

لقد كانت الصبغة التي طغت على الإنتاج الفكري في مملكة سنغاي، هي الصبغة الإسلامية حيث أن الذين كانوا ينتجون في هذا الميدان إنما كانت تمثلهم النخبة التي تمكنت من الدين الإسلامي بواسطة اللغة العربية وقد ظهرت الحركة الفكرية وتطورت في ثلاث ميادين هي الآداب، والتاريخ والشرعيات وعلوم اللغة ويمكن لنا أن نتتبع تطورها فيما يلي:

أ- الآداب وأسلوب الكتابة:

لم يكن للأفارقة في غرب إفريقيا قبل مجيء الإسلام من الآداب، سوى حكايات يتناقلونها بالمشافهة، أصاغر عن أكابر، وهي تروي بطولات الأجداد

1 نفسه، ص 35.

2 عبد الحميد جنيدي، المرجع السابق، ص 88.

3 عبد الحميد جنيدي، المرجع السابق، ص88.

وأصول القبائل وحروب الملوك والرؤساء فهي آداب غير مكتوبة ولكن كان لها أثر في حياة الناس، ولما جاء الإسلام اعتنقه الإفريقيون في غرب إفريقيا وتمكن العلماء والرؤساء والعائلات الكبيرة من استيعاب مفاهيم الإسلام، بفضل الاحتكاك بالعرب من التجار والفقهاء، وهذه الصورة هي عينها التي كان عليها الشعوب التي تكونت منها مملكة سنغاي [1].

فكانت مدن السودان الغربي، التي ترتكز حولها ميادين النشاط الإنتاجي والتجاري مثل: تمبكتو وجاو وجنى، تعمر بالعلماء والقضاة والمفكرون، الذين تمبكتو من دراسة العربية و الدين الإسلامي حتى أصبحوا ينتجون في ميادينهم، مختلف المؤلفات بالشروح والكتابات التاريخية والفقهية على النمط الذي كان عند العرب في المشرق والمغرب، لكن هذه النسبة كانت تمثل الأقلية بين سكان الإمبراطورية أما الفئة الباقية فقد بقت على الأسلوب الإفريقي الأول، لكن تلك الأقلية كانت تمثل النخبة الرائدة التي كانت تقود المجتمع و تمثل وسطه العنصر الذي يسعى للدخول به إلى ميادين التقدم [2].

لم يعثر لكتاب السودان في عصر الصنغاي على أشعار ولكنهم كانوا كثيرا ما يستشهدون بأشعار وكتابات لشعراء العرب وكتابهم، فيقول عبد الرحمن السعدي عن تمبكتو بأنها تشبه في روعتها وجمالها، ما كان قد شبه به الهمداني البصرة في مقاماته [3]، وكذلك أحمد بابا، فهو يستشهد على صواب نظريته في أن السواد في لون البشرة لدى الإنسان إنما مرده إلى العوامل المناخية والطبيعية، برأي ابن خلدون ويورد رجز ابن سينا الذي لخص فيه رأيه في نفس الموضوع بقوله:

حر غير الأجساد حتى كسا جلودها سواد

1 زبادية، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص 154.
2 نعيم قداح، المرجع السابق، ص 161.
3 السعدي، المصدر السابق، ص 18.

والصلغب اكتسبه بياضا حتى غدت جلودها فضاضا

وهذا يدل على إطلاع السودانيين الكافي على الأشعار العربية والكتابات المنمقة لدى الهمداني والحريري وغيرهما[1].

أما الأسلوب الذي كانوا يكتبون به، فإننا إذا أخذنا "أحمد بابا" [2]، كمثال على ذلك لأنه عاش في نفس الفترة وكتب خلالها فإن أسلوبه شيق وجزل ومتين، فقد ألف تراجم المالكية وكتب رسالة حول حكم الإسلام في امتلاك المسلم للمسلم كعبد، الذي عالجه بأسلوب علمي موضوعي، وجزالة أسلوبه تكمن في تمكنه من الألفاظ التي يستعملها ومفردات الجمل، كلها متناسقة [3] وأسلوبه جاء متين على عكس أسلوب السعدي ومحمود كعت اللذان يعتبر أسلوبهما بعيد عن المتانة والجزالة، كثير ما يتخللها الحشو وأحيانا تعابير غامضة استعملت فيها مفردات أخداها من الدارجة[4].

ونجد أيضا كتابة في عهد سنغاي باللغة العربية المتمثلة في الأسئلة السبعة التي كان قد بعث بها الحاج محمد الكبير إلى الإمام المغيلي حوالي سنة 1502م [5]،

---

1 زبادية، المرجع السابق، ص 156.

2 كان مطبوعا عن التأليف، حيث كتب نيف وستين مؤلفا، وكانت الفترة المغربية هي أغزر فترة، وأزكاها في هذا المجال، هاته الفترة تقدر بثلثي إنتاجه، اشتهر بكتاباته في الفقه والحديث وعلم الرجال. أنظر: أحمد بابا، المصدر السابق، ص ص16-17. أنظر أيضا:

John Hunwick:**The middle niger 1400-1750 in Arabic Literature in Africa**, Northwestern University, Evanston, nº03, p p 6-16.

وينظر أيضا: أحمد بابا التمبكتي: **معراج الصعود**، تح وتر، فاطمة الحراق وجون هانويك، منشورات معهد الدراسات الإفريقية الرباط،2000 ص 16.

3 زبادية، المرجع السابق، 156.

4 نفسه، ص ص156-157.

5 زبادية، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، المرجع السابق، ص6.

وقد كتبها بعبارات شديدة القوة والتماسك، ولكننا لا نستطيع الجزم بأن كاتبها سوداني، لأن الأخبار تواترت إلينا عن وجود كتاب مغاربة في بلاط الأسكيا في ذلك الوقت، ولدى فغير مؤكد صياغة تلك الأسئلة لكاتب سوداني [1].

والنتيجة في موضوع الكتابة الأدبية في سنغاي، أنها كلها باللغة العربية، ووصلت إلينا من ذلك الوقت كمية قليلة، ومن الاطلاع عليها يستطيع الدارس أن ينتهي إلى القول بأن الكتابة باللغة العربية بلغت مستوى متوسطا لدى كتاب ذلك الوقت من السودانيين، فقد كتبوا في مواضيع اجتماعيه عديدة أثناء تصديهم للكتابة في التاريخ والفقه، ولكن لم تؤثر لنا عنهم أشعار تستحق الذكر سوى ضروب من الرجز الذي كانوا يستعملونه أحيانا لضبط معلوماتهم في الفقه والفرائض والمنطق [2].

ب- الشرعيات وعلوم اللغة:

لقد تحدث السعدي طويلا عن العلماء والفقهاء الذين تولوا منصب قضائي في سنغاي، وأتى بقوائم طويلة للأئمة والمدرسين زاد عددهم عن المائتين، وقام بالثناء على كل واحد منهم لتمكنهم من العلوم وبدلهم الجهود العظيمة في تحصيلها وإشاعتها [3].

وفي جميع القوائم التي ذكرها لم يعثر إلا على رجلين فقط قال عنهما إنهما كانا بالإضافة إلى تمكنهما من الفقه والتفسير، لهما إطلاع على الأدب العربي، أما الذين أتقنوا النحو و الصرف بالإضافة إلى الفرائض والتفسير فهم ثلاثة، وهناك واحد فيهم قال عنه أنه يحسن المنطق، وبهذا يتضح أن مادة الفكر الأساسية كانت الشرعيات وعلوم اللغة، وأن جميع أولئك العلماء كانوا أولياء الله، وكانت

1 زبادية، مملكة سنغاي، المرجع السابق، 157.
2 زبادية، المرجع السابق، ص 158.
3 السعدي، المصدر السابق، ص 63.

الشعوذة تختلط بأفكار الناس ولم يكن أولئك الفقهاء والمفسرون يختلفون في ذلك عن غيرهم ويفسر هذا بأن الكثيرين من أولئك العلماء لم تمكنهم ثقافتهم من فهم أغراض الشريعة الفهم اللائق فهم وإن أتقنوا الكثير من أحكام الفرائض وحفظوا الأحاديث، إلا أن فهمهم لعميق أغراض الشريعة ظل سطحيا[1].

ومما يؤكد هذه الحقيقة، أن الأسكيا محمد الكبير قد أظهر في أسئلته التي استفتى فيها المغيلي تألمه الشديد من كون علماء بلاده لا يفقهون من الدين الإسلامي إلا بعض الأحكام البسيطة وفهمهم في الغالب لها سقيم ومع ذلك فهم يتباهون على الناس بغزير علمهم ويجدون من بين العامة من يتبعهم ويصدق كل ما يقولون[2]، ولهذا لم نعثر في جميع المصادر على أي مؤلف قائم بذاته لعلماء صنغاي في مجالات الفقه واللغة والتفسير، وكل ما كتبوه في ذلك على كثرته لا يعدو أن يكون حاشية لشرح، أو شرح لتصنيف، أو نظما في قالب رجز لمصنف من المصنفات التي كتبها المشارقة والمغاربة، أو تفسيرا لجزء من القرآن يعتمد فيه صاحبه على شرح لعالم آخر من خارج السودان [3].

ومنه يمكن القول، أن أغلب المواضيع التي برز فيها السودانيون، التي تعتبر إنتاجا مستقلا، كان في ميدان التاريخ.

التاريخ:

إذا قمنا بتجاوز ما كتبه أحمد بابا في تراجم الفقهاء والمفسرين، الذي كان موضوعه أميل إلى الفقه فإن هناك رجلين بارزين قد أنتجا في ميدان التاريخ إنتاجا سودانيا قائما بذاته في نهاية ق:10ه/16م وهما عبد الرحمن السعدي، والقاضي محمود كعت، هذا الأخير عاش في أيام الأسكيا الحاج محمد الكبير وألف كتابه

1 زبادية، المرجع السابق، ص 159.
2 زبادية، أسئلة الأسقيا، المرجع السابق، ص ص62-63.
3 زبادية، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص ص169-160.

"تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس"[1]، وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار[2]، وقد قال في هذا الصدد: "...وليعلم كل من وقف على هذه القصص أنا لم نقصد بذكرها مباهاة ولا افتخار بل لما رأيناه وشاهدناه..."[3].

ويلاحظ على كتاب كعت أنه تضمن بعض الحوادث التي احتواها تفوق عمره بست سنوات لأن أحداث الكتاب انتهت في 1008ه/1599م، مما يبعث على الظن بأن الكتاب قد أتمه بعض أحفاده بعد وفاته 1002ه/1593م[4]، وكانت لغته أسلم من لغة تاريخ السودان للسعدي، كما أنه أكثر منه اشتمالا على مظاهر الحياة الاجتماعية، بدأه بالحديث عن الأسكيا محمد والثناء عليه كثيرا ووصفه بالعادل والصالح وختمه بالحديث عن تمبكتو حين غزاها المغاربة، والنكبات التي حلت بسنغاي[5]، حيث قال"...صارت تنبكت جسما بلا روح وانعكس أمورها وتغير حالها وتبدل عوائدها ورجع أسفلها أعلاها وأعلاها أسفلها وساد أرذالها على عظمائها..."[6]، بعد أن غزاها المغاربة وأمر المنصور بإجلائها من العلماء والمثقفين وحملهم إلى مراكش[7]، رغم أن كتابه لم يعرف إلا بعد الحملة إلا أنه كان يشتغل عليه في الفترة التي نحن بصدد دراستها.

---

1 زبادية، المرجع السابق، ص 159.

2 نفسه، ص 160.

3 كعت، المصدر السابق، ص ص 15-16.

4 جمال زكريا قاسم: **الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية**، دار الفكر العربي، القاهرة، 1999، ص 157.

5 زبادية، المرجع السابق، ص 161.

6 كعت، المصدر السابق، ص 175.

7 زبادية المرجع السابق، ص 161.

أما عبد الرحمن السعدي فقد ألف هو الآخر كتابا في تاريخ عهد الأسكيين بصنغاي والفترة المغربية بالسودان الغربي وسماه "تاريخ السودان"، وقد ولد ليلة الأربعاء ليلة الفطر، سنة 1004ه/ 1595م، بعد وفاة محمود كعت بثلاث سنوات، تولى إمامة مسجد سنكري في السادسة والثلاثين[1].

ولذا فقد كتب السعدي في العهد المغربي، وجاءت حوادث ذلك العهد مفصلة في كتابه في حين جاءت حوادث الفترة السابقة مختصرة، وقد تحدث فيه عن أسباب تأليفه في هذا الموضوع، ذكر ملوك السودان، أهل سنغاي وقصصهم وأخبارهم وسيرهم وغزواتهم وذكر تمبكتو وملوكها، وتحدث عن العلماء والمصلحين، وأسلوبه فهو مفكك وعباراته غير مستقيمة غالبا، مما يدل على أن حركة الفكر في بلاد صنغاي قد آلت هي الأخرى إلى ضعف في آخر أيام الأساكي والقسم الأكبر خصصه للحديث عن باشوات المغاربة في سنغاي ولدى يعتبر مؤلفه من أوفر المصادر عن بلاد السودان في تلك الفترة[2].

ولهذا نقول عن اقتناع أن جل المواضيع التي أنتج فيها السودانيون بالخصوص في مملكة سنغاي إنتاجا مستقلا في تلك الأثناء، لم يكن في الأدب ولا في الشريعة واللغة، وإنما كان في ميدان التاريخ والنتيجة التي يمكن أن ينتهي إليها الباحث حول تطور الحركة الفكرية في سنغاي، هي أن الأبحاث كانت نشيطة في علوم الشرع واللغة ولكنها ظلت تتصف بالاستيعاب دون أن تتجاوزه إلى مرحلة الإنتاج المستقل، أما في الأدب فلم يكن لها وجود إلا وجود ضعيف جدا [3]، ولكن الحركة الفكرية رأت نشاطا ملحوظا في ميدان التاريخ وقد كان ولا يزال مؤلف كل من عبد الرحمن السعدي و محمود كعت أبرز الأمثلة على استقلالها

1 البرتلي الولاتي: **فتح الشكور في معرفة أعيان التكرور**، تح، محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط1، 1981، ص 176.

2 زبادية، المرجع السابق، ص ص161-162.

3 نفسه، ص ص162-163.

وأصالتها في هذا المجال ولا يبدوا كل من الرجلين أكثر علما من أحمد بابا ولا أكثر إنتاجا منه، ولكنهما ألفا في موضوعات مستقلة مما جعل عملهما بمثابة عنوان على الإنتاج السوداني الصرف في تلك الفترة [1].

ثالثا: الدور المغربي في السودان الغربي تجاريا وثقافيا:

لقد استطاع الإسلام كحضارة راقية أن يثبت وجود المدنية الإسلامية، وأن يطورها، وكان أحد العوامل الرئيسية التي أدت إلى ازدهار الحياة الاقتصادية في غرب إفريقيا عامة، والسودان الغربي خاصة إبان العصور الوسطى والحديثة، من الطبيعي أن يكون التواجد المغربي ببلاد السودان الغربي، كثيفا نظرا للعلاقات التجارية التي ربطت المنطقة مند فترة طويلة [2].

وقد امتازت جسور التواصل بين بلدان المغرب والسودان الغربي بالفاعلية والديناميكية، فقد أضحى التفاعل شاملا، وعمّ جميع القطاعات، الاجتماعية، والاقتصادية والسياسية والثقافية، ويظهر أن الحضارة المغربية ذات الطابع الإسلامي، كان لها الأثر الكبير في نشر تعاليم الإسلام الحنيف، وبث لغة الضاد والتفاعل الشامل مع مقومات الحضارة الزنجية، من خلال عملية التأثير والتأثر [3].

---

1 زبادية، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي، المرجع السابق، ص 85.

2 محمد الشريف: **الجالية المغربية ببلاد السودان الغربي ق 8هـ/14م**، مقال ضمن أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، تقد، عبد الحميد الهرامة، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس ط1، 1999، ص443.

3 الطيب الوزاني: **مقومات التفاعل الثقافي والحضاري بين دول غرب إفريقيا والمغرب الأقصى**، مقال ضمن أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، تقديم عبد الحميد الهرامة، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس ط1 1999، ص480.

وسوف أقوم بعرض الدور الذي لعبه المغاربة في السودان الغربي في المجالين التجاري والثقافي:

1. في التجارة:

مما لا شك فيه أن الوضع الجغرافي للصحراء الكبرى، وامتدادها الطبيعي للشمال الإفريقي وحرص القوافل التجارية المغربية، على اتباع الخطوط الصحراوية التي ذكرناها سابقا، قد ساعد على تطعيم وتغذية الجو التعليمي بما يحمله هؤلاء، من أنباء وأفكار جديدة على منطقة السودان الغربي [1] وكان التجار المغاربة المسلمين يلفتون الأنظار أينما ذهبوا، من نظافة، وتعلم، وتواضع [2]، ولم يستعبدوا تلك الشعوب ولم يقظوا على نظمهم المحلية، وانما انسجموا معهم، وخلقوا في كل المراكز التجارية، طابعا محلي يتلاءم مع الدين الإسلامي [3].

وكانت المدن التجارية، التي ظهرت على امتداد الطرق التجارية، ذات طابع إسلامي، وادخل إليها المغاربة نظام الصكوك والمعاهدات، والمكاتبات التجارية[4]، وأقيمت في المدن الإفريقية الأسواق في أيام معلومة، تقليدا لأسواق المغرب العربي [5]، وكانت عدة طرق مشهورة تنطلق من المغرب الأقصى إلى

1 عبد الجليل التميمي: **الروابط الثقافية المتبادلة بين تونس وليبيا ووسط وغرب افريقيا خلال العصر الحديث** منشورات المجلة التاريخية المغربية، تونس، 1981، ص 19.

2 نعيم قداح، المرجع السابق، ص 139.

3 حسن أحمد محمود: **الإسلام والثقافة العربية في إفريقية**، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1998 ص 43.

4 نعيم قداح، المرجع السابق، 139.

5 نعيم قداح، المرجع السابق، ص 140.

السودان الغربي، جالبة معها الآلاف من السكان سنويا، مما جعل أثر تجارة القوافل في السودان الغربي ملموسا [1].

كذلك الدور الهام الذي قام به التجار المغاربة في المنطقة، هو ادخال المقاييس، والمكاييل والموازين الثابتة، في مختلف المبادلات والتعاملات التجارية ، ففي الوزن مثلا يستعمل المثقال لوزن المعادن ويساوي وزن اثنين وسبعين حبة من حبات القمح المتوسط، ويقدر وزن المثقال بحوالي أربعة جرامات من الذهب[2]، وبلغ صرف المثقال الواحد ثلاثة آلاف ودعة [3]، والدرهم عندهم يساوي سبعة أعشار المثقال أما الدينار فكان يساوي أربعين درهما [4]، ويعادل سعر الدينار ستة أوقيات من الذهب، وتزن الأوقية الواحدة حوالي سبعة وعشرين ونصف ڤرام [5].

أما لوحدة الكيل فقد كانوا يستعملون المد، الذي يساوي أربعة أمداد بجمع اليدين، والصاع يساوي أربعة أضعاف المد، أي ما يعادل ثلاثة كيلو غرامات [6]، أما المودي فهو يساوي ما يحمله العبد أو الرجل من حبوب أو غيرها في كيس كان يتخذ من الجلد [7].

بالإضافة الى معيار القياس الذي استعمل في عدة أغراض مثل: طول الأرض والأقمشة كالدراع والشبر، بالإضافة إلى القدم والخطوة والقامة والحبل لقياس المساحة، أما لقياس المسافات استعمل الميل الذي قدر بحوالي 1920مترا،

1 الأمين عوض الله، المقال السابق، ص 95.
2 الدالي، المرجع السابق، ص ص 336-337.
3 كعت، المصدر السابق، ص 183.
4 زبادية، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص 200.
5 الدالي، المرجع السابق، ص 337.
6 نفسه، ص 337.
7 زبادية، المرجع السابق، ص 199.

والفرسخ تقاس به المسافات الطويلة ويساوي ثلاث أميال كذلك استعمل اليريد الذي يعادل سرعة حصان، كما استعمل الرمح لقياس طول ماء النهر [1].

كما عرفت منطقة السودان الغربي بعض العملات المستوردة من المغرب الأقصى، تستعمل في البيع والشراء مثل الدينار، والمحبوب الذهبي، والموزونة الفضية والصائمة النحاسية، كذلك الدورو الفضي [2].

ومنه فإن التجار المغاربة والجالية التي سكنت في السودان الغربي، كان لهم أثر كبير في التجارة الصحراوية وتنظيمها، وادخال عليها طرق تعامل جديدة، ومعايير احتفظت بأسمائها واستعملت في جميع أنحاء السودان الغربي وقاموا بتنشيطها خاصة في عهد الأسكيين.

كل هذا التنوع التجاري التي عرفته بلدان السودان الغربي، والازدهار الذي تزامن مع مملكة سنغاي في ق:10ه/16م، ما كان له أن يحدث لولا العلاقات التجارية بين الشمال والجنوب والدور الفعال الذي لعبه المغاربة المسلمون في المنطقة، منطلقين من شعار "اعمل واكسب بالوسيلة النزيهة" وما نتج عنها من ازدهار حضاري في المنطقة، لم يسبق لها مثيل في تاريخ المنطقة.

2. في المجال الثقافي والحضاري:

هناك جملة من العوامل دفعت بلدان المغرب لاحتلال دور الريادة في السودان الغربي، إما على المستوى الديني أو الثقافي أو الاقتصادي، حيث كان يضم أشكال حضارية متباينة من مقومات حضارية شرقية اسلامية، الى مؤثرات حضارية متوسطية فضلا عن تيارات الحضارة الزنجية، وبعد أن أصبحت مراكش عاصمة

---

1 كعت، المصدر السابق، ص ص 56,38,35. أنظر أيضا: السعدي، المصدر السابق، ص 138. زبادية، المرجع السابق، ص 198.

2 يحي بوعزيز، المرجع السابق، ج1، ص 49.

لإمبراطورية شاسعة تضم الأندلس والمغرب الأقصى، وجزئ من المغرب الأوسط، فقد أصبح المغرب الأقصى في تلك الفترة الأمين على التراث العربي الإسلامي بعد سقوط غرناطة [1].

وهكذا لعب المغرب العربي، دورا هاما في الازدهار الثقافي الذي مس منطقة السودان الغربي والجدير بالذكر أن التبادل الثقافي عبر الصحراء، لم يتأثر بما كان يجري من تحولات سياسية في السودان الغربي وبلدان المغرب، وأخدت العلاقات بين الطرفين أشكالا إيجابية تمخضت عن ارتباط عضوي سياسي، اقتصادي، وثقافي [2]، ويتمثل الدور المغربي في المجال الثقافي والحضاري في النقاط التالية:

أ- التعليم والحركة العلمية:

لقد كان التعليم في السودان الغربي محصورا بالأساتذة المغاربة، وبعد مضي مدة تكونت طبقة مثقفة من الإفريقيين تولت مهمة التعليم، بعد أن تخرجت من المدارس المغربية والمصرية [3]، حيث كادت مدارس الثقافة الإسلامية في المنطقة أن تكون مدارس مغربية بحتة [4].

وتميز التعليم أيضا بنفس الأسلوب ونفس الحياة، ونفس المثل ونفس الوسائل المتبعة في المغرب الأقصى وحتى طريقة الكتاب نفسها تأثرت أيضا بالطابع المغربي، فالقلم العربي المستخدم هو القلم المغربي كذلك نفس المناهج والكتب المالكية المغربية منها: كتب عياض، وكتب سحنون، وشروح ابن القاسم

---

1 شوقي عطا الله الجمل: **الحضارة الإسلامية العربية في غرب افريقية سماتها ودور المغرب فيها**، مقال بمجلة المناهل المغربية تصدر عن وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، مطبعة فضالة، المغرب، عدد7 1976، ص 134.

2 محمد الغربي، المرجع السابق، ص 513.

3 نعيم قداح، المرجع السابق، ص 160.

4 حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص 244.

وخليل، وتحفة الحكام والعباد [1]، وكتب الونشريسي وموطأ الإمام مالك، والمدونة الخزرجية[2].

وانتقل حب المغاربة للنحو والصرف إلى الإفريقيين، لأن كثيرا من كتب النحو حملها الكثير من الأساتذة المغاربة إلى منطقة السودان الغربي[3]، واقبال طلاب المنطقة على العلم دفعهم في كثير من الأحيان إلى عدم الاكتفاء بالدراسة في السودان، بل قام الكثير منهم برحلات واسعة إلى بلدان المغرب ومصر[4]، فقد شهدت حواضر المغرب حضور متميز للعناصر السودانية، تنهل من حياض المعرفة إما في رحاب جامعة القرويين بفاس، أو في جامعة ابن يوسف بمراكش، أو في غيرهما من منارات العلم، كما أن علماؤها لم يتوانوا عن الدفع بعجلة النشاط الثقافي ببلاد السودان الغربي[5].

فقد كان من الطبيعي أن تكون الرحلة قائمة بين الجانبين، وأن ينشأ عنها جالية مغاربية في السودان الغربي، وجالية سودانية في بلاد المغرب الأقصى وضمن هذه وتلك برز عنصر العلماء الذين أسهموا في نشاط الحركة الفكرية والثقافية هنا وهناك كما ذكرناهم سابقا [6]، وارتبطوا ارتباطا وثيقا بمؤلفات المغاربة التي اعتمدوها في حلقات الدروس، ومجالس العلم، وكان للعلماء السودانيين عليها شروح وتعليقات تمثلها تلك المخطوطات السودانية الكثيرة في مكتبات السودان والعالم [7].

1 حسن أحمد محمود، المرجع السابق ، ص 244.
2 السعدي، المصدر السابق، ص ص46,43.
3 نعيم قداح، المرجع السابق، ص 161.
4 زبادية، الحضارة العربية، المرجع السابق، ص57.
5 الطيب الوزاني، المقال السابق، ص 485.
6 محمد أمين المؤدب، المقال السابق، ص 592.
7 زبادية، المرجع السابق، ص 54.

وهذه الشروح كثيرة، نذكر منها شرح المقدمة الأجرومية لأحمد بن أندغم محمد التمبكتي الفقيه المتوفي في سنة 1045ه/1635م [1]، وشرح آخر للشريف محمد بن الإمام أحمد الإدريسي لكتاب البسط والتعريف للمكودي [2]، كذلك شرح منظومة المغيلي في المنطق لوالد أحمد بابا التمبكتي [3].

هذا وقد أسهم علماء السودان بنوع آخر من التأليف، يمكن أن ندرجه تحت اسم "الردود" وقد تجلى أكثر ما تجلى في الجانب العقدي والتشريعي [4].

ب- الجانب العقدي:

إن تدفق الإسلام من بلاد المغرب إلى افريقية منذ ق:5ه/9م، حمل معه إلى غرب افريقية تقاليد بلدان المغرب وثقافته، هاته الثقافة قد غلبت عليها التقاليد المالكية الدينية، وكانت كلها تدور حول فقه الإمام مالك، والعلوم المساعدة الأخرى التي تخدم هذا الفقه [5]، ويعد ترحيب السودانيين بهذا المذهب مظهر من مظاهر الائتلاف بين الجانبين، حتى أصبح المغرب.أ. الوطن الأب في نفوسهم ومشاعرهم [6].

وكان الفقهاء مالكيين في حياتهم وتقاليدهم وانتاجهم وتأليفهم وتدريسهم، فتأثر بهم سكان المنطقة وتراجم العلماء والفقهاء التي وردت في كتاب نبل الابتهاج، أو في تاريخ السعدي، أو الفتاش تعطينا هذه الصورة المالكية

1 البرتلي، المصدر السابق، ص ص39,26.
2 نفسه، ص 139.
3 نفسه، ص 30.
4 محمد أمين المؤدب، المقال السابق، ص 596.
5 حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص 244.
6 الطيب الوزاني، المقال السابق، ص 484.

الصرفة[1]، وقام الكثير من فقهاء المالكية المغاربة، بالشرح والتعليق على أمهات الكتب وتأليف المختصرات والشروح والحواشي، وقاموا أيضا بالقضاء والفتيا في المنطقة[2] وقد تردد كتاب الموطأ في فتح الشكور 14 مرة، ومختصر خليل 54مرة، وفي المدونة 10مرات، مما يؤكد انتشار هذا المذهب في السودان الغربي[3].

وقد انتشرت في المنطقة عدة طرق صوفية، كالقادرية، والتجانية، والسنوسية، وتعد الطريقة القادرية التي تأسست في ق:6ه/10م، أوسع الفرق الدينية انتشارا في منطقة السودان الغربي [4].

3. الحياة الاجتماعية:

كانت حياة البلاط الملكي في السودان الغربي صورة لما كان سائدا في بلاط مراكش والقاهرة وكان السلطان يحظر صلاة الجمعة، وينظر في الشكاوي المقدمة له في المسجد [5]، ويستمع الى الخطبة التي يلقيها الإمام بالعربية[6]، وفرضت الثقافة الإسلامية على الحاكم، أن يتجول في شوارع عاصمة ملكه متفقدا بذلك

1 حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص 244.

2 أحمد مرجان محمد: **فقهاء المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي في عهد مالي وصنغي**، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، ط1، 2010، ص 98.

3 محمد أمين المؤدب، المقال السابق، ص 591.

4 حسن ابراهيم حسن: **انتشار الإسلام في القارة الإفريقية**، مكتبة النهضة الإسلامية، القاهرة، 2000، ص 43.

5 نعيم قداح، المرجع السابق، ص 175.

6 اتخذت اللغة العربية لغة السياسة والإدارة، ولغة العقيدة والشريعة، إضافة إلى كونها لغة التعامل التجاري، وقد اهتمت الطبقة المثقفة في بلاد السودان الغربي باللغة العربية وكذلك حكام البلاد، الذين أتقنوها قراءة وكتابة، حيث كانت مراسلاتهم مع الفقهاء والعلماء باللغة العربية. أنظر صباح الشيخلي، المقال السابق، ص 25.

شؤون الرعية[1]، وقد اصطنع سلاطين سنغاي لنفسهم أنسابا عربية مثل انتسابهم الى عبد الله بن صالح بن الحسن بن علي رضي الله عنهم، هذا كله ليكتسبوا صبغة اسلامية كاملة ويفوزوا برضا الرعية والعلماء[2] وكانت تقاليد الحج مشابهة للتقاليد المغربية المعروفة آنذاك، فقد حرص الأسكيا محمد الكبير كما ذكرنا سابقا، على أن يأخذ معه الى الحج جمعا كبيرا من العلماء والأعيان، مثل مواكب الحج التي تخرج من المغرب الأقصى [3].

وقد تشبه أهل السودان الغربي في لباسهم، بنمط المغرب الأقصى وتأثروا به، فكانوا يرتدون عمائم بحنك وجباب ودراريع بلا تفريج [4]، واتخادهم البرانس، والقمصان للرجال [5]، وكان اللون الأبيض مع عمامة زرقاء اللباس التقليدي للعلماء [6].

أ- الفنون:

لم يكن الإبداع الفني غائبا على منطقة السودان الغربي فقد قال الوزان في هذا الصدد أن سكان صنغاي يبيتون في غناء ورقص حتى مطلع الفجر، وتزداد تلك الظاهرة انتشارا وقوة في الأعياد والمناسبات [7]، وقد تأثر أهل المنطقة بالمديح النبوي، الذي عني به المغاربة مند عصر الموحدين عناية شديدة، وازدادت تلك

1 نعيم قداح، المرجع السابق، ص 176.
2 حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص 243.
3 زبادية، المرجع السابق، ص 57.
4 القلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص 298.
5 زبادية، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص 132.
6 محمد الغربي، المرجع السابق، ص 609.
7 الوزان، المصدر السابق، 101.

العناية في العصر السعدي [1]، وقد كان الشاعر يشارك في مواكبة الصلات الثقافية بين الجانبين، على جانب الشاعر المغربي، الذي كلما دعا داع إلى ذلك [2].

وقد شاعت بعض الأشكال الموسيقية ذات الجدور الإفريقية في المجتمع المغربي، الذين أضفوا عليها مقومات فنية نابعة من الحضارة المغربية، ونعني بذلك الفن "الكناوي"، الذي أصبح لا يخلوا من نفحات صوفية[3]، وقد اتسع نطاق التأثير الثقافي المغاربي على السودان الغربي، ليشمل جانب فني جمالي آخر، فقد حاكى سلاطين السودان وأمراؤه وأعيانه، المغاربة في اضفاء الرونق والجمال على قصورهم ومساجدهم وهكذا كان المبدعين المغاربة من مهرة الصناع الفاسيين والمراكشيين يشيعون الفن المغربي الأندلسي في حواضر افريقيا الإسلامية ومازالت النقوش الفاسية، والشمسيات الزجاجية تشهد على عبقرية الإبداع المغربي[4].

ب- العمارة:

إن دراسة الآثار العمرانية في جنى، وتمبكتو في ق10ه/16م، تكشف لنا عن أسلوب البناء الذي ساد في هذه البلاد والذي يعود في أصله إلى الهندسة المعمارية في المغرب، التي حملها المهندسون المغاربة أو من سكان المنطقة الذين درسوا فن العمارة في فاس ومراكش[5]، فقد كان الفن المعماري الأصيل في إفريقيا قبل ذخول الإسلام هو البناء المستدير، المغطاة سطوحه دائما بالأخصاص والقش في شكل هرمي، تبنى حيطانه بالطوب والآجر ونادرا ما تتخللها الحجارة، وفي الأغلب

1 محمد أمين المؤدب، المقال السابق، ص 602.
2 محمد أمين المؤدب، المقال السابق، ص 598.
3 الطيب الوزاني، المقال السابق، ص 492.
4 شوقي عطا الله الجمل، المقال السابق، ص 158.
5 شوقي عطا الله الجمل، المقال السابق، ص 159.

يتميز بناء الأغنياء من بناء العامة [1]، ووجدت لدى سكان السودان.غ. عادة بناء حوش أو زريبة امام المنزل لإيواء الحيوانات، خاصة لدى قبائل الفلان [2].

ولعل من أبرز المهندسين المغاربة الذين دخلوا منطقة السودان.غ.، مبكرا بإيعاز من ملوكها للإشراف على بناء القصور والمساجد، المهندس إبراهيم الساحلي [3]، هذا الأخير شيد الكثير من المباني ومسجد في تمبكتو، وقصرا في نيامي، وقد أعجب ابن بطوطة بالقاعة التي كانت مجلسا للسلطان وأقام التجار في المنطقة حوانيت على الطريقة المغربية، في بناء مخازن البضاعة وقد لعب المعماريون المغاربة أيضا دورا في تخطيط مدينتي جنى وجاو، التي تمتازان بالشوارع الضيقة والسطوح العالية، والأبواب الضخمة [4].

وكان هناك نوع من البناء الشائع الاستعمال في المغرب الأقصى والأندلس، المتمثل في الشكل المربع المسقوف بالتراب، والمحاطة جوانبه من أعلى بإطار قليل الارتفاع يتخلله ثقب صغير، لكي لا تستقر المياه في السطح وكان خاصاً بدور السادة، ثم عمّ استعماله لدى الجميع[5]، وفيه أيضا بركة اصطناعية يكبر حجمها ويصغر حسب درجات الناس وامكانياتهم[6]، وقد شاع في السودان بناء الأسوار حول المدن تشبها بما شاع في المغرب، وعرف في مدينة كومبي الحي المغربي بمنازله

1 زبادية، المرجع السابق، ص 165.

2 نفسه، ص 166.

3 عندما زار وفد مالي للمغرب عام741ه/1341م، في عهد السلطان أبي الحسن المريني لتقوية العلاقات بين البلدين، وعند انتهاء الزيارة جمع السلطان عدد من الصناع للذهاب معه، وكان على رأس تلك البعثة أبو اسحاق ابراهيم الساحلي، الذي ساهم في الحركة المعمارية بالمنطقة آنذاك أنظر: شوقي عطا الله الجمل وآخرون، المرجع السابق، ص 118.

4 نعيم قداح، المرجع السابق، ص 146.

5 زبادية، المرجع السابق، ص 166.

6 نفسه، ص 166.

المغربية ونوافذه الزجاجية، وقد كان حكام هذه البلاد وشعوبها ينظرون لما يشيع في بلاد المغرب العربي والبلاد العربية الأخرى من حضارة على أنها مثل عليا تحتذى بها[1].

- الخاتمة:

وفي الختام ، يمكن القول أنه على الرغم من أن بلاد السودان الغربي قد اشتهرت بتجارة الملح والذهب وبمساهمته الفعالة في تجارة القوافل عبر الصحراء الكبرى، بينه وبين الشمال الإفريقي، فإن خصوصيات أرض السودان الغربي وبيئتها ومناخها، أغدقت على البلاد خيرات زراعية وحيوانية و سمكية ومعدنية وفيرة، وقد لعبت التجارة الصحراوية دورا هاما في تقوية العلاقات شمال جنوب، التي تعود إلى فترة مبكرة من التاريخ، وربما نستطيع القول بدون أي تحفظ أن الإسلام كان أكبر عامل في هذه العلاقات المتنوعة بين شعوب المنطقتين والذي كان له الدور الرئيسي في ازدهار الحياة الثقافية والحضارية في منطقة السودان الغربي خاصة خلال القرن 10هـ/16م، وهذا التفاعل بين الإقليمين كان من القوة بحيث أفضى على تسرب مقومات تنتهي من الإبداع المغربي على بنية الحضارة الإفريقية في ظل الإسلام، فإن المغاربة قد أسعفتهم جملة من العوامل والمؤهلات، لقيادة الفعل التجاري والثقافي في السودان الغربي واذكاء جدور الحضارة الإسلامية في غرب افريقية لدرجة يذهب معها بعض الباحثين إلى أن تاريخ الإسلام في هذه الربوع لا يمكن فهمه الا في ضوء تاريخ المغرب العربي وأحداثه، رغم أنها لم تكن السباقة إليها في نشر الإسلام ، إلا أنه يرجع كل الدور إلى تلك الدول وإلى حركة التجارة التي ازدهرت في المنطقة.

ولم تكن الثقافة في غرب أفريقيا أقل غزارة وعمقاً من الثقافة في بلاد البلدان المغاربية، ولم يكن العلماء والفقهاء الذين تعرضت لهم كتب التراجم أقل في

1 شوقي عطا الله الجمل، المقال السابق، ص ص158-159.

مستواهم العلمي من إخوانهم المغاربة فالتفاعل والتواصل والتلاحم بين الأقطار الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى كان عميقا وقويا ظهرت فيه عناصر التأثير والتأثر من الجانبين في جميع ميادين الحياة، ولهاذا فإن الحركة الثقافية والحضارية في بلاد السودان الغربي خلال القرن 10هـ/16م، لم تكن في الواقع مجرد تجديد لتراث ثقافي وحضاري بائد، وإنما كانت انفراجا لثقافة إسلامية راسخة في هذه البلاد، منذ قرون خلت، وأدّى المغاربة دورا كبيرا فيها.